نبوءات الموريسكيين بين الحقيقة التاريخية والمغامرة اللاهوتية

مختصر القاسم الحجري نموذجا

د. هشام بن سنوسي

جامعة جيجل.

تاريخ الاستلام : 2016/07/07 تاريخ القبول: 2016/09/04

Abstract:

It should out of partiality be acknowledged that the heirs of one of the most glorious civilizations were the Andalusian Moors, who have, in turn, bequeathed a legacy that still attests to the demise of their hybrid cultural heritage during the 17th and 18th centuries. The Moorish manuscripts illustrate their civilizational conflict, their psychological turmoil, their ardent defence of their cultural identity, and their steadfast devotion to their Islamic faith. Hence, it can be argued that their legacy is the product of a spacio-temporal conflict in Spain between two distinct religions and civilizations.

Key Words:

Andalusian Moors, Christianised Muslims, The New Christians, Minority, Spain, Inquisition, Literary Legacy.

خلف الموريسكيون الأندلسيون تراثًا ظلّ شاهدا على احتضارهم النفسي والثقافي الهجين، طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، حيث سجلت المخطوطات الموريسكية جوانب بالغة الأهمية في صراعهم الحضاري وارتجاجهم النفسي، ودفاعهم المستميت عن هويتهم الثقافية، وتمسكهم بمبادئ دينهم،[1] وعليه يمكن اعتبار هذا التراث، نتاج مرحلة مهمة ارتبطت زمانيا ومكانيا بالصراع الحاد في إسبانيا بين ديانتين ونظامين حضاريين يختلفان سياسيا واجتماعيا وثقافيا.[2] وهذا ما يجعل المشكل الموريسكي في رأي المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل Fernand Braudel صراعا دينيا، أو صراعا حضاريا، وهو بهذه الصفة يصعب حله، وبالتالي فهو كان مدعوا لأن يستمر."[3]

فكلّ طرف ظلّ متشبثا بهويته الحضارية، محاولاً أن يستوعب الآخر في إطار مجابهة جدلية، ولأن الموريسكي ظلّ غير قابل للاحتواء، فإسبانيا لم تتصرف بحقد عنصري، بل بحقد حضاري وديني، وكان الطرد انفجارًا لهذا الحقد، وشهادة عجز للإسبان، بدليل أنّ الموريسكي بعد مُضي ثلاثة قرون، ظلّ المسلم السابق الذي حافظ على كلّ فنّ حياتي، ولذا تمّ رفضه في الحضارة الغربية، لأن قلبه ظلّ مرتبطا بعالم آخر.[4]

هكذا كانت المشكلة الموريسكية تطرح بشكل من الأشكال غربتها عن المجتمع الإسباني، لقد شكل الموريسكيون الأندلسيون إطارا ثقافيا وحضاريا مغايرًا لما كان موجودًا في إسبانيا آنذاك، فعلى امتداد عدّة أجيال، عمل أفراد هذه البقية على انقاذ ذاتيتهم المتميزة، لتبقى دوما في مأمن من الاندماج، وتلك كانت سيرورتهم التاريخية التي لا مفرّ منها.

ويبقى التراث الموريسكي كفيلاً بإبراز الذاكرة الجماعية لأقلية مضطهدة، عانت الشتات وتردي المستوى الثقافي المتبقي من الثقافة الأندلسية، التي خفت نورها وانحسر إلى الوراء بسقوط غرناطة عام 1492م، وهو السقوط الذي مثّل حدًا فاصلاً بين حضارتين في إسبانيا، حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات، وحضارة غربية مسيحية تكتسح ما تعتبره دخيلاً، وتقذف به خارج شبه الجزيرة الأيبيرية.ويبدو أنّ الأدب جاء هو الآخر مترابطا متلاحما مع هذه المرحلة التاريخية التي انتهت إليها الأندلس، فكان يُرى فيه نشاط إنساني، يعكس الواقع ويقدم العون، نشاطٌ يصاب بالمد والجزر بحسب مدّ الأحداث وانحسارها..[5]

لقد تناولت كتابات الموريسكيين مواضيع ذات طالع ديني وتشريعي وجدلي وقصصي، حيث تميزت بشكلها العامي الشعبي مما سهّل انتشارها وامتدادها عبر التاريخ،[6] خاصة بامتناع مؤلفيها عن التنصيص على أسمائهم تحررا وتقيّة.[7]

1- الأدب الموريسكي وطابعه الشعبي:

أهمّ اعتبارين يرجحان كفة الطابع الشعبي لهذا الأدب: أنه أدبٌ جماعي لم يقم بصياغته مؤلف متفردٌ معروف، بل تداوله الناس واعتبروه مِلكًا مشتركًا، واعترف كاتبوه بهذه الملكية المشتركة فلم ينسبوه لشخص محدد.والثاني: أنّ روحه ورسالته مما لا يعكس منظورًا سلفيا تقليديا مثقفا غالبًا ما يلتزم به الكتاب المعروفون، وإنما يعكس رؤية هذه الجماعة الموريسكية للماضي كما يتمنونه ويتصورونه، في محنتهم الماحقة، إنّه رؤية الماضي على نار واقعهم المعيش، ومن ثمّ فهو أدبٌ شعبي بالمفهوم العميق لهذا المصطلح، وفي ذلك تكمن خصوبته وقدرته على التلقيح والانتشار، كما تكمن قيمته في الكشف عن الوجدان الجماعي للموريسكيين الأندلسيين، وبلورته لوعيهم التاريخي طبقًا لسلم القيم المتجسد لديهم، وكلما بعد عن منظومة (التراث) العادية، واستغرق في الخيال، دون مساس بالروح المثالي الإسلامي كلما كان أعمق تجذرًا في هذا الوجدان، وأشدّ تمثيلاً لخواصه الشعبية الأصيلة.[8]

2- النبوءة بين الحقيقة التاريخية والمعطى البسيكولوجي:

لقد كانت فكرة النبوءة، من الحيل المدهشة التي اهتدى إليها موريسكيو القرن السادس عشر، ليتمكنوا من تحمل حالة اليأس وارتجاجاتها النفسية التي مرّوا بها، لذلك انغمسوا فيها كونها استطاعت أن تمنحهم شيئا من الامتاع والمؤانسة، والملاذ الذي بحثوا عنه طويلاً، وهو أمرٌ يعدّ من الأبعاد المدهشة والمثيرة للاستغراب في الأدب الموريسكي الأندلسي، كما أنه يعدّ مثالاً مثيرا للمشاعر على التفكير الرغبي الجمعي، فكتب الجفر (Aljofores) المسماة أيضا (Alguacias)، المكتوبة بوضوح في القرن السادس عشر، تتظاهر (بمظهرها العتيق) أنها مخطوطات قديمة، (رغم وجود استثناءات معينة تشذ عن القاعدة) تتنبأ بمستقبل زاهر مزده بالنصر لمسلمي إسبانيا.[9]

ويبدو أن تصنيف كتب الجفر أو ردها إلى أحد الأنواع الأدبية هو أمرٌ في غاية الصعوبة، ذلك أنها تدمج عناصر متنوعة من الرواية والأدب والتاريخ، وباستخدامها كان الموريسكيون يحاولون فقط إعادة كتابة تاريخهم والتأثير في مستقبلهم، بعد أن أجبروا على التعميد والانصهار الثقافي البطيء في الطابع المسيحي الإسباني لعصر النهضة، ومن النادر ايجاد تجربة موازية لهذه التجربة الأدبية والإنسانية (الصادرة عن اليأس)، التي حاول بها مسلمو الأندلس أن يعيشوا حياة مختلفة عن حياتهم.[10]

وقد دفع كثير منهم غاليًا ثمن نبوءاتهم التي كانت تدافع عنهم، والذي يؤكد هذه الظاهرة دون شك، هو عدد القضايا المطروحة في دواوين محاكم التفتيش، التي آخذت أصحابها بالاعتقاد بصحة هذه التنبؤات.[11] ويبقى اعتقاد الموريسكيين والمسيحيين بصحة هذا الأدب التنبئي من عدمه، مثارًا للسؤال والجدل، ورغم ذلك فقد عمد الفريقان إلى استثمار معرفتهما بطريقة متفردة في هذا المجال، فكلّ منها كان يمدُّ مجموعته بنبوءات مزيفة، تخدم صالحه السّياسي والإنساني على حدّ سواء.[12] إنّ أكبر مثال يمكننا الظفر به، نجده في مختصر رحلة الشهاب الحجري،[13] وتحديدا في الباب الأول،[14] الذي خصصه للحديث عن الرق وصفائح الرصاص التي وجدت قرب مدينة غرناطة؛[15] يقول في هذا الصدد:

«..في عام ست وتسعين وتسع مائة[16] من الهجرة ومن حساب النصارى عام ثمان وثمانين وخمس مائة وألف أمر القسيس الكبير[17] بمدينة غرناطة بهدم صومعة قديمة كانت في الجامع الكبير، وكانت تسمى من قديم الزمان تُربَّانه [18] قبل الإسلام، وذلك بعد أن بنوا صومعة قريبا منها عالية جدا، ولما أن هدموا القديمة وجدوا في حَيْطِها صندوقا من حجر وفي داخله صندوقا من رصاص، وفيه وجدوا رقا كبيرا مكتوبا بالعربية والعجمية المتصرفة في بلاد الأندلس، ونصف خمار الصالحة مريم عليها السلام أم سيدنا

عيسى عليه السلام، وعظما من جسد أشْطِبَان[19] الصالح عندهم، فأما ما كان في الرق بالأعجمية فقرئ وما كان بالعربية فنادوا الأندلس الكبار السّن الذين يعرفون القراءة العربية، وأمرهم القسيس بترجمة ما في الرق من العربي، ولم يحيطوا بفهمه حقيقة.. وبعد أن وجدوا الرق بسبع سنين جاء رجل من مدينة جيان ببعض كتب بعثها له بعض الأسارى من بلاد المغرب فيها ذكر كنوز في بعض المواضع، فكان ذلك الرجل بقرب غرناطة على بعد ميل منها أو نحو ذلك، وكان الموضع يسمى بخندق الجنة، فحرك حجرا ووجد تحته غارا وفي ركن الغار رمادا ورصاصا مكتوبا باللِّطين يقول فيه: هذا الموضع أحرق فيه القسيس سِسِلْيُوه،[20] وهذا سسليوه كان الذي كتب الرق، وذلك أن النصارى كان عندهم في كتبهم خبر بموت سِسِلْيُوه وأنه كان من تلميذ سيدنا عيسى عليه السلام، وأنه قتل على دينه، وأنه من الشهداء عندهم، ولا علموا بموضعه، فأمر القسيس الكبير بالدخول في الغار وينظرون فيه ويفتشون لعلهم يجدون كتبه المذكورة في رومة في دار دينهم، والخبر في ذلك أنه عندهم في كتبهم أن سسليوه القسيس الكبير كان عنده أسرار وأمور ربانية من زمن سيدنا عيسى عليه السلام أو قريبا منه، وأنه أودعها مكتوبة في جبل يسمى بابلطان ..ولما فتشوا في الغار وجدوا بعض الحجار معقودة فكسروها ووجدوا في قلب كل حجر كتابا وورقة رصاصا (كذا) وكل ورقة قدر كف اليد أو أقل قليلا، وهي مكتوبة بالعربية فأمر القسيس الأندلس بترجمة الكتب فوجد في أحدها ذكر الرق الذي كان بأيديهم قبل ذلك العهد بنحو السبع سنين فاشتد حرصهم على فهم ما في الرق.»[21]

ويذكر الحجري ما وقع له مع القسيس الكبير في شأن قراءة الرق، وما صح منه لديه؛ قائلاً: «.. ثمّ أمر القسيس بإحضار الرق وكان في الطّرّة مكتوب بالعربية بحروف غير منقوطة: يا طالب اللغز اقرن وان لم تقرن لم تحط بفهم الجفر، فسألني عن المعنى

بالعجمية فذكرته له، وكان في أعلاه مكتوب ((جفر المنجيل يوحنا في خرب الوجود)) ..قال القسيس سسليوه عن نفسه أنه مشى في طلب العلم إلى مدينة أطيناش[22] ببلاد اليونان حيث يقرأ العلم بكل لسان وأن بعد زمن مشى إلى زيارة بيت المقدس وأن الطريق بفساد الأزمنة والرياح أصابه ما شاء الله من زيارته بداء مرض العينين حتى غشي البصر بالبياض، وأن الموكل ببيت المقدس أخرج إليه جفر الحوري يوحنا الذي كتب ربع الانجيل، وقال له أن فيه سرا عظيما،[23] واستشفى به، وارتد عليه بصره، ثمّ أخذ منه نسخة اليوناني وترجمه باللسان المتصرف باشبانيه (العجمي) وهي بلاد الأندلس، وأدخله في جدول من تسع وأربعين بيتا ووضع في كل بيت حرفا من العجمي ثم وضع تحت الجدول شرحا بالعربية، ولما ترجمت العربي الذي ذكر أنه الشرح، فكنت آخذ من العجمي الذي هو المتن إلى أن أجد علامة الوقف، ثم آخذ من العربي وهو الشرح ما يناسبه، فجاء الكلام مطابقا ومفهوما وهو كما ذكر في الطرة (يا طالب اللغز أقرن) والاقران لشيئين متباينين يجمعهما، وأما ما ترجم به كل من سبقنا وكان فيهم أعلم مني فترجم الشرح وحده ولا فهم معناه ..ففرح القسيس فرحا عظيما بما ترجمت وعلم أنه الحق وأعطاني ثلاثمائة ريال وأيضا كتابا بالإذن للترجمة من العربي إلى العجمي وبالعكس، وامتد الخبر عند النصارى حتى كانوا يشيرون إلي ويقولون هذا هو الذي فهم الرق الذي وجد في الصومعة، وقد مضت نحو العشر سنين بعد أن وجد، فأمرني القسيس الكبير أن أكتب نسخة من الرق، وبعثها للبابا بالمدينة رومة.

وبعض ما تضمن الجفر قال في العجمي المكتوب في الرق شيئا مما يكون بعد كمال ستة قرون من ميلاد عيسى عليه السلام، وقال في الشرح العربي القرن مائة سنة.

من غمرات الشرقين اتى ملك جاني بالانشرار

على الوجود قايم بتمام القدر قد انتصار

يا مالكا دايما من هذا الأمر أين الفرار

ودين يتقدم على من قد أمله من العيوب

فترجمت معنى هذه الأبيات والمفهوم منها عندهم، أن الملك هو النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم يقولون أنه ولد للإحدى وعشرين سنة وست مائة من ميلاد عيسى عليه السلام ..وفي معنى الجاني وقع الخلاف بين المترجمين، ولما ترجمت أن دينه يتقدم على من قد أمله من العيوب، قال القسيس كيف هذه الترجمة، وقد كره ذلك كثيرا، لأن الكفار هم الذين أملوه من العيوب وتقدم دين النبي صلى الله عليه وسلم، وهو موافق لآية في القرآن العزيز، قوله تعالى: (هُوَ ٱلذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾)[24] وهو معنى والله أعلم أن دين النبي صلى الله عليه وسلم يتقدم على المشركين الذين أملوه من العيوب.

وكان في أسفل الرق مكتوب بالعربية أول ما صدر يوحنا في الانجيل كتبه بطريسي[25] قسيس خديم سسليوه، وقال أنه أمره أن يضعه في موضع خفي حتى يريد الله أن يظهره، وأنه وضع الصندوق في حيط الصومعة خوفا من السلطان نيرون... وأما الكتب التي وجدت في الغار في خندق الجنة فكانت اثنين وعشرين كتابا، والورق كما قلنا من الاسرب »[26] [27]

هكذا تمّ توظيف خدعة النبوءة (في الرق وصفائح الرصاص) لخدمة بعض أغراض المسلمين في الفترة التي سبقت عملية طردهم بصورة نهائية من الأندلس عام 1609م، حيث أحبطت بعض الاجراءات التي كانت ستتخذ، والتي كانت ستسبب الضيق والحرج للكنسية، كما كانت ستوقع محنة بالمسلمين المنصّرين، ومن هنا نشأت _ فيما يبدو _محاولة دبلوماسية يائسة للوصول إلى تركيب بين العقيدتين، فألواح الرصاص

التي ذكرها الحجري، هي واحدة من أمثلة كثيرة عن مظاهر التوفيق بين المعتقدات الدينية، كما ترينا حقيقة المواجهة الحاصلة بين هذين المجتمعين خلال تلك الفترة،[28] ذلك أنّ ظاهرة التنبؤ تمثل احدى موضوعات المجادلة بين الموريسكيين والمسيحيين، الذين تبادلوا في كثير من الأحيان حججهم حول ذلك.[29]

وقد حام بعض الشّك حول الذين شاركوا في الترجمة (الرسمية) لهذه الألواح الرصاصية، في أنهم كانوا في الواقع هم من كان وراء كتابتها، وقد ساعدهم في هذه المغامرة اللاهوتية ذات الآثار النفعية على الصعيد الحياتي اليومي، أشخاص كان لهم بعض الاهتمام بالدينين المتعارضين.[30] وربما كان ذلك أحد أشكال الحلول، التي جاءت لتجسد في بعض الضمائر، تلك المصالحة المثالية، التي عرفت أنها البديل الخيالي لما قد حدث في الواقع من قهر واجتثاث، وهو تضاد فادح بين الأصل التاريخي والمثال الأدبي.[31]

فالنبوءات كمخطوطات تاريخية مزعومة، تبدو في الحاضر مثيرة للمشاعر بسذاجتها اللاهوتية، كما تبدو مأساوية بسبب إخفاقها التام في منع طرد مسلمي الأندلس، ومنح بعض الهيبة والاحترام للإسلام، الذي كان يعاني النزع الأخير في إسبانيا الكاثوليكية، ومع ذلك يمكن عدّ هذه الكتابات، التي تركز موضوع اهتمامها حول التنبؤ بالمستقبل (أو بالأحرى التأثير بالمستقبل)، سابقة أدبية فريدة من نوعها.[32]

ذلك أنّ مسلمي الأندلس استطاعوا أن يقدموا تفسيرا أدبيا لوجودهم، باختراع القدرة على البقاء كشعب من لا شيء، كما أرادوا من خلال ذلك أن يبجلوا هذا القدر التاريخي، ويرفعوا من شأنه بإضفاء بعض المظاهر الروحية الجدية الغامضة عليه، لكن الخيال الجامح منعهم من الرؤية الكاملة للحقيقة المؤلمة التي تقتل كلّ تفاؤل سعيد، فالتاريخ الذي برهن أنّه كان عقيما وبلا طائل، أثبت أنّ التفاؤل المثير للمشاعر كان

مجرد خطأ، فتنبؤاتهم التي تُقرأ اليوم تثير الكثير من الشجن، بسبب معرفة المسار التاريخي لهذا الشعب.[33]

ومن ثمّ تعكس هذه النصوص، حقيقة تاريخية مضبوطة لمجتمع متنازع يعيش في وضعية متأزمة، تجلت فيها ظاهرة التنبؤ في وقت حدث فيه ارتجاج مستديم للعقول، غلبت فيه اللاعقلانية على التفكير المنطقي،[34] فإحساس الموريسكي بنهايته القريبة، جعله يستمر في الصراع ضدّ مصيره المحتوم، عن طريق تبني تصّور متهيّج ويائس.[35] وهذا ما يجعل ظاهرة النبوءة تمثل احدى المعطيات البسيكولوجية القارة لدى الموريسكيين وتفكيرهم الجمعي، الذي عبروا من خلاله عن أملهم في مصير أفضل، ومعارضتهم للمجتمع المسيحي.[36]

وبإمكان هذه النصوص أن تعين على فهم العقلية الموريسكية، وتشرح طبيعة سلوكها من خلال تأويلها لأجل الوصول إلى معرفة أشمل بمن أنتجها كما يقول كارديناك.[37]

لكن ذلك لا يعني بالضرورة أنّ هذه النصوص لم تكن خاضعة للحقيقة التاريخية من جانب آخر، فأحداث السّقوط والتعميد وطرد المسلمين سنة 1609م، قد تمّ ادراكها بوعي على قاعدة مجازية بالنسبة للواقع الإسلامي المحتضر خلال العصر الذهبي لإسبانيا المسيحية،[38] ما يعني وجود أصداء من الواقع بالفعل رغم إغراقها في جوّ الخيال والخرافة. فليس من باب الصدفة إذا تكاثر هذه النصوص في المناطق التي شهد فيها الإسلام تأثرا شديدا، وفي الفترات التي بلغ فيها توتر العلاقات بين المجموعتين حدّه الأقصى، خاصّة في زمن الثورات الموريسكية، وزمن الطرد.

3- النبوءة وطابعها الجدلي:

وتتضمن هذه النبوءات في الواقع، كلّ الخصائص المميّزة للنصوص الجدلية، فالهدف منها هو إبراز التفوق الشخصي على حساب الآخر، ذلك أنّ الموريسكي يسعى من خلالها إلى قلب الوضع المعاكس لصالحه،[39] ويظهر ذلك في بحثه عن الاستشهادات الموجودة في تراث العدو، واستغلالها في مثل هذه الحالات لصالح الفكرة التي يراد الدفاع عنها، كما هو الشأن بالنسبة لتنبؤات القديس ايزيدور، التي كثيرا ما قرأها الموريسكيون، واستعملوها كحجج دون حرج أو تردد.

وقد كان تزوير النصوص وجعلها ملائمة للصالح الخاص، مثارًا لتبادل التهم بين الطرفين، وقد أشار الحجري إلى ذلك؛ قائلاً: «..ولما ترجمت ابتداء الإنجيل وما ذكر فيما كتب قال لي القسيس: انظر هذه الكلمة، قال: لها معنى غير هذا؟ قلت: ليس لها إلا هذا المعنى، قال: فاترك موضع الكلمة ابيضا لأنه مخالف للإنجيل الذي بأيدينا، قلت في نفسي: هذا الذي كتب في زمن سيدنا عيسى أو بأثره فهو عندي أصح من الذي عندهم الآن.»[40]

وقال في موضع آخر: «..وقد قلت للقسيس نحب نطالع الكتاب الذي لم يقرأ المسمى بحقيقة الإنجيل لعلّي نستخرج منه شيئا، قال لي: لم يبلغ الزمن الذي يقرأ فيه الكتاب، وعلم ذلك من الكتاب المسمى بكتاب مواهب الثواب للصالحة مريم،[41] وقد وجدت في تونس.. نسخة منه بالعربية وأخرى بالأعجمية أتى بالنسختين واحد من الأندلس الذي كان يترجم، ووجدت في الأعجمية الباطل والكذب ما لا كان في النسخة العربية.»[42]

4- النبوءة وفكرة المخلّص:

إنّ عجز الموريسكي عن مواجهة أشكال الظلم والقهر، قد خلق حالة من اليأس، وهي الحالة نفسها التي كانت وراء ذيوع فكرة الاعتقاد بالمخلّص الفرد؛ وهي

فكرة تتضمن (اغتراب الجماعة)، وربط خلاصها بالفرد المرجأ إلى زمن غير معلوم، يقترب ظهوره كلما ازداد غليان الأحداث ليوقف الحيف، وهو تعويض عن النضال ضدّ القهر الحاصل في الزمان والمكان، ودفعه زمانيا ومكانيا أحيانا إلى عالم آخر،[43] فمجيئ البطل المنتظر الذي اكتسب معنى المنجي المخلّص، كان يكشف آنذاك عن أحلام الجماعة، وكان لهذا التعبير ما يقابله على مستوى الواقع، حيث اندفعت هذه الأخيرة وراء زعماء ورموز، مثلوا لها المخلّص الذي يحقق المعجزة، أو القادر على اختراق الموت.

ومهما تكن الأسماء التي تقنع بها المخلّصون كالفاطمي، أو علي بن أبي طالب، أو الملك المنتظر.. فإنّ ثمّة مهمة واحدة لهم جميعا، هي ملء الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورا، أو إقامة ملكوت الله، أو حكمه، أو دولته، أي إقامة فردوس أرضي لا موقع فيه للظلم والاستعباد.[44] ومن الأمثلة المثيرة حول نبوءة المخلّص ما ذكره الشهاب الحجري في مختصر رحلته: «..في الجفر مكتوب يقول: ((من أقصى المغرب على ماء البحر يأتي سريع القوام إلى بلاد النصارى وتصل الهَمْلى[45] إلى رومة))، وذكر مما ينزل بالنصارى من الشر والخسران شيئا كثيرا، وقال عن ذلك وعلامتها، أعني ما ينْزل من البلاء والغلب، إذا يأتي الوقت بالانفصال مدينة البحر يملكها الشرقي بلا محال، ولم يشك أحد من سمع ذلك أن الشرقي هو سلطان المشرق وأنه سلطان الترك نصره الله.»[46]

ومن المثير أنّ تجد هذ الأجفار اهتماما لدى السّلاطين والأمراء، الذين حاولوا استغلالها وقتئذ، وقد ذكر الحجري في هذا الصدد: «..وأما ما ذكر في الرق أن علامة النحس الذي ينزل على النصارى يكون إذا أخذ المشرقي مدينة البحر فكنت قد أظهرت نسخة من الرق المذكور لمولاي أحمد سلطان مراكش رحمه الله، قال واحد من قواده لو كنت تبدل (القاف) (بفاء)، ليقول ان مدينة البحر يملكها الشريف، فيفرح بذلك

السلطان، قلت لا أبدل شيئا إن شاء الله.»[47] «..وكان في الرق أيضا يقول: من القبلة يخرج الحاكم العدل ولا يعود، انتهى.»[48]

لقد شاعت فكرة الاعتقاد بالمخلّص، وذاعت نبوءاتها في المغرب وتركيا وغيرها من البلاد الإسلامية، بعد أن وجدت طريقها بين السلاطين والأمراء، الذين اهتموا بالمشكل الموريسكي، بل وقابلوها بشيء من التصديق والتحري، وهذا يفسر الكثير من الأشياء، ذلك أن إيمان الأندلسيين بالرجوع إلى أرضهم لم يكن مجرد أمنية بعيدة المدى، فقد كانوا يعتقدون بإمكانية تحقيقه في أي وقت، فعندما كانوا بإسبانيا، اعتقدوا أول الأمر أن المقصود بالفاتح في أجفارهم هو سلطان المغرب،[49] ولدى بروز الأتراك كقوة بحرية بشمال افريقيا اعتقدوا أن المقصود بالفاتح هو سلطان الأتراك الذي كان يمثل الأمل الأكبر،[50] إلى أن وقع الطرد وحملوا معهم هذه النبوءات...[51]

ومن الجدير بالملاحظة، أن نجد في هذه النصوص التنبئية سواء لدى الموريسكيين أو المسيحيين، نفس التصور الاستدلالي، ونفس الانتظار الضمني للمخلص، لكن في اتجاه معاكس، وبرؤية مغايرة تمامًا.[52] وعليه بات من السّهل أن نهتدي إلى الطريقة التي عبرت فيها فكرة المخلص عن نفسها في كتابات الموريسكيين، فالمخيلة الموريسكية لم تستغث بشخصيات مجهولة فحسب، بل عمدت إلى معاملة صفاتها معاملة مثالية، فكانت ضمن شخصيات أخرى ذات نزوع مثالي، يصنعها طابع الخرافة، بعد أن يغلفها الخيال الشعبي بذلك.

ويبدو أنّ أدب هذه الفترة، كان مندفعا هو الآخر تحت رغبة جنونية إلى المبالغة والتعالي، فصور هذه الشخصيات المجهولة، وكأنها من عالم آخر غير هذا العالم، جاءت لمهمة واحدة هي تحقيق الخلاص المنتظر على شاكلة الإسكندر الأكبر.

لكن من مفارقات هذا الأدب الذي بالغ في الاحتفاء بتلك الشخصيات، أنها لم تكن شيئا يذكر في عالم الموريسكيين المنكوب.

إنّ جملة المتاهات الخيالية التي سبح فيها الموريسكيون، واعتقد بصحتها السّلاطين والأمراء، كان لها منطلقات في التطلعات الأخيرة، فلم يفقد الموريسكيون أمل رؤية اخوانهم المسلمين يأتون للوقوف بجانبهم ضدّ مضطهديهم، لذلك كان الالتجاء إلى ما وراء الطبيعة لدى الكثيرين حلاً منهجيا للمشكل الراهن،[53] فالحاجة دفعتهم إلى قبول الحماية من كلّ من اقترب منهم.

5- ظاهرة التنبؤ كعلامة للهوية الموريسكية:

ويرى كارديك أنّ ظاهرة التنبؤ، هي تعبير عن الهوية الموريسكية تجاه المسيحيين، أو بالأحرى هي علامة من علاماتها، فنصوصها ذات الصّبغة الجدلية، تُظهر شخصية الموريسكي المناضلة،[54] ذلك أنّ الموريسكي يثبت هويته تجاه المسيحي بإثبات شخصه ككائن متعلق بالدين أساسا، فيضع قدره في مخطط مقرر سلفا من عند الله لصالح مجموعته، [55]وحتى لو بدا له بأنّ المظاهر هي التي تثبت أنّ العدو هو المسيّر للأحداث والصانع للتاريخ، فلابدّ من تجاوز هذه النظرة السطحية للأحداث، فالطرد ليس بانتصار لفليب الثالث، وما هزيمة الموريسكيين إلاّ لحظة من المحن الضرورية التي تنبئ بمستقبل حافل بالأمل، فأمام الخوف الشديد المرتبط بالظرف الحاضر، يخلق التنبؤ حركية جديدة، محفزة للطاقات، فأمل الانتصار القريب والأخذ بالثأر، لا يكون إلاّ بالتدخل الإلهي، وهو الضمان الأكيد الذي عبرت عنه هذه النصوص المتعلقة بالمحنة،[56] فرغم النزعة اليائسة والمعقدة لتنبؤات مسلمي الأندلس،[57] فقد كان لها جانب متفائل بصورة خاصّة، يهدف إلى رفع الرّوح المعنوية للمضطهدين، وتخفيف بعض من آلامهم، التي سببها الواقع المعيش، وذلك بالارتداد إلى عوالم الخيال.

إنّ الحاجة الميؤوس منها في هذه النصوص، والتي كانت تمثل مجرد تسلية ذاتية (عابرة)، تسمح لنا باستشفاف عمق المأساة الجماعية التي عاشها الموريسكيون، ويبدو واضحا كيف أنهم التجأوا إلى سرد انكسارهم التاريخي، وإلحاحهم على إضفاء الطابع الخرافي لإبادة شعبهم إبادة نهائية، فليس سهلاً لأيّ شعب أن يتوقف عن الحياة، بيد أنّ هذا النوع من النبوءة استمد أصوله من الانهيار، ومن الحسرة التي لا تنفد، كما تولد من قساوة فقدان الذاتية الثقافية التي تشكلت قبل ذلك.[58]

وعلى الرغم من ضعف هذه النبوءات المجهولة المؤلف، وكثرة أخطائها، وضحالة أسلوبها، وغموض رموزها التي استعصى حلها، فهي تعتبر من أصدق الآثار الكتابية، التي التحم حولها موريسكيو القرن السادس عشر، فمدارها كان إسبانيا التي كانوا متشبثين بها من خلال الواقع الإسلامي، وهذا في قلب العصر الذهبي لإسبانيا الكاثوليكية.[59]

لقد حاول بعض الكتاب الموريسكيين الاضطلاع بمهمة المؤرخين اليائسين،[60] لأجل كبح جماح القدر التاريخي، وإيقاف كرونولوجية الاجتثاث الحضاري لآخر بقية من الأمّة الأندلسية القديمة، التي كانت تسعى لمواصلة انتسابها إلى الشرق في إسبانيا الكاثوليكية، «يقول العبد الفقير... أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي... من نعم الله تعالى أن جعلني مسلمًا في بلاد الكفار... ببركة الوالدين وإرشادهما.»[61] ولذلك استحق هؤلاء وصف (المؤرخين المضادين)،[62] فقد سمح لنا أدبهم الملتوي (المسكون بالتاريخ)، أن نلمح عملية الانقراض البطيئة لشعب وحضارة اختفت بكاملها خلال القرنين السّادس عشر والسّابع عشر.[63]

وحتى الاعتقاد بصحة هذه النبوءات، لم يكن فيما يبدو من باب التفاؤل السّاذج، بل كان تعبيرًا عن حالة الضعف والشتات، الذي آلت إليه أمّة الأندلس،

والشعور بالكرب والتشاؤم، في عالم يذوب ويختفي ببساطة، هذا ما أدركه المثقفون، وجعلهم يصّرون بإلحاح على عرض صورة شعاعية، وروحية مثيرة لبلاد الأندلس، «وفي أيّ موضع هي من معمور الدنيا والأقطار المجاورة اليها، والعرض والطول في صقعها، (وذكر) من سكنها من الأجناس القديمة قبل دخول المسلمين إليها، وفي أيّ سنة كان افتتاحها، وما اتفق في أخذها، (وذكر) بعض الملوك الصالحين المجاهدين، ورسائل لسان الدين»،[64] التي كانت فيما يبدو في غرض الاستصراخ.

هوامش البحث:

[1] ينظر: عبد الله ،حمادي: الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492 – 1616، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989: 107 – 108.

[2] حنيفي، هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، ط1، دار الهدى، 2010.: 156.

[3] Fernand Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Destins collectifs et mouvements d'ensemble, Armand Colin éditeur, Paris, 1966 et 1990. p. 515.

[4] نفسه: 531 – 532.

[5] ينظر: إحسان عباس: هل كان الشعر في الأندلس سببا في انحلال أخلاقها ثم سقوطها أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس؟ مقال بمجلة الأصالة الجزائرية، ع: 27، سبتمبر _ أكتوبر، 1975.: 206.

[6] صلاح ،فضل: ملحمة المغازي الموريسكية، دراسة في الأدب الشعبي المقارن، ط1، دار المعارف، 1989.: 115.

[7] ينظر: عبد الله حمادي: الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس: 115.

[8] ينظر: صلاح فضل: المرجع السابق: 116.

[9] لوسي لوباز ،بارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني، ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.: 1/ 778.

[10] نفسه .

[11] حول هذا الموضوع ينظر عدد القضايا التي يوردها لوي كارديك في كتابه: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية (1492–1640)، ترجمة: عبد الجليل التميمي،ط1، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، تونس، 1983.

[12] بارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 1/ 778. وأيضا النبوءة في الأدب الألخميادو _ الموريسكي للأندلس من خلال مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس، المجلة التاريخية المغربية، ع: 21 و22، أفريل 1981.: 50.

[13] ..هو أحمد بن قاسم الحجري المدعو بـ: أفوقاي أو بيخارانو، تمكن من الفرار بدينه وبدنه إلى المغرب في حدود سنة 1007ه/ 1598م، أي قبل قرار الطرد بثلاثة عشر عاما، أواخر عهد المنصور الذهبي، حيث اشتغل بالترجمة لدى سلاطين مراكش من بعده، وهو صاحب المخطوط الموسوم بـ: ناصر الدين على القوم الكافرين: مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة، عدد: 1634ت، وتوجد نسخة منه بخط المؤلف، أتمّ كتابتها بتونس سنة 1051هـ/ 1641م، وقد قام بتحقيقه: محمد رزوق، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (1)، الدار البيضاء، 1987.:17 ...والمخطوط يقع في ثلاثة عشر بابا، فصّل فيها صاحبها سفارته عن المولى زيدان إلى كلّ من فرنسا وهولندا ومصر، بل وبالمغرب نفسه. والمخطوط في الأصل مختصرٌ لمخطوط سّابق عنوانه (رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب)، وضعه الحجري بناءً على طلب من شيخ المالكية علي الأجهوري بالقاهرة سنة 1047ه/ 1637م، (وهي رحلة مفقودة).

[14] ..وهو الباب الثاني عشر من الرحلة.

[15] ..عندما هدم برج توربين في غرناطة، لتوسيع الكاتدرائية عثر على صندوق مصنوع من الرصاص يضم كتابات منقوشة تتنبأ بالمستقبل ونهاية العالم، تنسب إلى القديس (يوحنا الإنجيلي)، ولقد قوبلت هذه الآثار المكتشفة بالتحري لأجل التحقق من صحّتها، ويرى البعض أنّ القديس يوحنا الصليبي، الذي كان (آنذاك) رئيسا لدير الراهب ديسكالسيد الكرملي (Discalced Carmelit) من بين علماء اللاهوت والقضاة والمتخصصين في الكتاب المقدس، الذين عينوا لدراسة هذا الاكتشاف الأثري، وبعد خمسة عشر عاما، سنة 1595م، عثر على اكتشاف لافت آخر أكثر أهمية، إذ وجدت ألواح رصاصية في ساكرومنتي في غرناطة مكتوبة بحروف عربية ذات زوايا (لكي تبدو عتيقة المظهر) وبلاتينية بسيطة غير متقنة، ويقال إنّ ما عثر عليه كان تسعة عشر لوحا دائريا مصنوعا من الرصاص على هيئة صفائح رقيقة، وقد صنعت الألواح لتبدو كأنها تعود إلى القرن الميلادي الأول وكتب عليها العديد من الكتابات: كالأحداث الغريبة التي شاهدها القديس جيمس، والأحاجي والأحداث العجيبة الغامضة التي شاهدتها العذراء، وعن الروح المهيبة المبجلة، والمبادئ العامة للإيمان ، وكتابات أخرى...، وجميعها منسوبة إلى تيسيفون ابن طيار (Tecifon Ebnatãr) وأخيه سسيليو إينالرابي (Cecilio Enalrabi)، وهما تلميذان مزعومان للقديس جيمس الرسول (James the Apóstle)، الذي كان يحمل اسم سانتياغو ابوستول (Santiago Apóstle)، القديس الراعي لإسبانيا، وقد أمر رئيس أساقفة غرناطة بيدرو فاكا دي كاسترو (Pedro Veca de Castro)، بحماسة كبيرة أن ينقب عن هذه الألواح الرصاصية، وتسبب العثور على هذه الألواح، كما يقول هارفي بحدوث ضجة هائلة، وتعطي هذه الألواح الرصاصية وصفا جسمانيا للمسيح ومريم العذراء، التي تجيب على أسئلة القديس بطرس بخصوص الأحوال والمعاصي، التي سترتكب في غرناطة خلال القرن السادس عشر، وعن الأهمية الخاصّة للمسلمين في تلك الأيام، وقد نشأ نزاع لاهوتي استمر لمدة طويلة نتيجة لاكتشاف هذه الألواح، ورغم أنّ هذه (الآثار) قد صودق على صحتها بالفعل من قبل علماء لاهوت شبه الجزيرة في نيسان 1600م، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع الاعتراض عليها، .. ونقلت الألواح في النهاية إلى مدريد ثمّ إلى روما، وكذبها آخرون في القرن التاسع عشر، ولم يعد يعترف بها إلى الأبد، وهي لا زالت توصف من قبل الكنيسة بأنها عمل من أعمال الهرطقة. ينظر: بارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 1/ 779، 780.

[16] ... بالضبط في 19 ربيع الثاني من سنة 996ه/ 18 مارس 1588م.

[17] ... وهو أسقف غرناطة Jean Menéndez de Salvatierra المتوفى سنة 1588م، وخلفه الأسقف Don Pedro Castro في نوفمبر 1589م لمتابعة القضية.

[18] Torre turpiana

[19] Stefano

[20] San Cecilio

[21] .. يجب مراعاة كون المؤلف موريسكيا تعلم العربية خفية، ولذلك تصادفنا أخطاء لغوية وكلمات عامية (مغربية) وأخرى مترجمة. الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق: 23، 24، 25.

[22] Athénes

[23] كتب في الطرة ونصف خمار الصالحة مريم.

[24] سورة التوبة: الآية: 33.

[25] Patrizio

[26] كتب في الطرة: أعني رصاص.

[27] الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين: 26، 27، 28، 30.

[28] ينظر: بارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 1/ 780.

[29] كارديك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: 67.

[30] بارالت: المرجع السابق: 781.

[31] صلاح فضل: ملحمة المغازي الموريسكية: 76.

[32] بارالت: المرجع السابق: 781.

[33] ا نفسه: 781، 783، 784. وينظر: النبوءة في الأدب الألخميادو _ الموريسكي: 60.

[34] لوي، كارديك: ظاهرة التكهن علامة من علامات الهوية الموريسكية، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات الموريسكية الأندلسية حول: الأبعاد العقائدية والفكرية في الأدب الألخميادو وسياسة محاكم التفتيش تجاه الموريسكيين: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ماي، 2009.:118.

[35] بارالت: النبوءة في الأدب الألخميادو _ الموريسكي: 57.

[36] كارديك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: 62، 63. وبارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 778.

[37] لوي ،كارديك: ظاهرة التكهن: 114.

[38] بارالت: النبوءة في الأدب الألخميادو _ الموريسكي: 60.

[39] كارديك: المرجع السابق: 119.

[40] الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين: 28.

[41] .. لقد درس ميكال دي ايبالزا Mikel de Epalza هذه الأناجيل، وادعى أنها كتبت من طرف الموريسكيين، وسماها بالأناجيل المزورة، مؤكدا أنها حرفت لكي تؤيد ما ذهب إليه الموريسكيون فيما يتعلق بجدالهم للمسيحيين... ينظر في هذا الصدد مقاله:

Le Milieu Hispano-Moresque de l'Evangile Islamisant de Barnabé (XVI-XVIIs) in Islamo christiana, Rome, 1982, 8, PP. 160 – 183.

[42] الحجري: المصدر السابق: 33.

[43] عبد الرحمن ،بدوي: الإنسان الكامل في الإسلام، مكتبة دار النهضة المصرية، 1950.: 88 – 89.

[44] باسم ،الهاشمي: المخلّص بين الإسلام والمسيحية، ط1، دار البيضاء، بيروت، 1996.: 50. وما بعدها

[45] يقصد الحملة.

[46] الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين: 28، 29.

[47] نفسه: 29، 30.

[48] نفسه: 30.

[49] .. ففي سنة 1569م في غرناطة، اعترف موريسكي لمحاكم التفتيش أنّ العرب يأملون كثيرا في الانتقام: « لقد كانوا مسلحين وحسب كتبهم وقصصهم ان هذه الأرض (إسبانيا) سوف تفتح من جديد، وأنّ عرب المغرب سوف يفتحونها، إنّ ساعة النجاة قريبة وسوف تأتي من شمال أفريقيا وبجاية، ووهران وسبتة سوف تفتح أولا ثمّ بعد ذلك سيتم من جديد فتح إسبانيا، منتهجين اتجاه طارق، الذي سيفتح أمامهم بشكل خارق للعادة، «وأنه في مضيق جبل طارق سيظهر جسر من جديد وعن طريقه سوف يجتاز العرب ويتمكنون من فتح إسبانيا حتى قاليسيا Galicia» عن الأرشيف التاريخي الوطني التتابع لمحاكم: الملف 2603، رقم: 1. نقلا عن كارديك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: 64.

[50] Cardaillac (Louis) : Le Turc suprême espoir des Morisques, in Actes du 1er congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb, Tome 1, Tunis, 1979, pp. 37-46.

[51] محمد ،رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط3، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998.: 248.

[52] كارديك: ظاهرة التكهن: 120.

[53] الحسين، بوزينب، البعد المغربي في السياسة الإسبانية تجاه الموريسكيين منذ عهد أحمد المنصور، ضمن أعمال ندوة الموريسكيون في المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2001.: 48، 49.

[54] كارديك: المرجع السابق: 119.

[55] يرى كارديك أنّ المعنى الحقيقي لظاهرة النبوءة، يكمن في كونها عنصرا أساسيا للواقع الديني، ذلك أنّ العمل الإنساني مرتبط بالمشيئة الإلهية، التي يمكن أن تكشف تدابير عنايتها على مجرى الأحداث، وأن تكشف مصير الإنسانية وخاصّة مصير شعب الله المختار، إلى بعض البشر الذين يقع اصطفاؤهم... ينظر: المرجع نفسه: 114.

[56] نفسه: 117– 118.

[57] بارالت: النبوءة في الأدب الألخميادو _ الموريسكي: 53.

[58] لمرجع نفسه: 61.

[59] نفسه.

[60] بارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 1/ 774– 775.

[61] الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين: 17.

[62] بارالت: المرجع السابق: 1/ 773.

[63] نفسه: 1/ 770– 773.

[64] الحجري: المصدر السابق: 18.